﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

بعد أن تحدث الحق سبحانه وتعالى عن بنى إسرائيل وكيف كفروا بنعمه .. أراد أن يعرض لنا حساب الأمم التى سبقت أمم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، ولقد وردت هذه الآية فى سورة المائدة ولكن بخلاف يسير من التقديم والتأخير .. ففى سورة المائدة :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة المائدة)

أى أنه فى سورة المائدة تقدمت الصابئون على النصارى .. واختلف الإعراب فبينها فى البقرة « الصابئين » .. وفى المائدة « الصابئون » .. وردت آية أخرى فى سورة الحج :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الحج)

الآيات الثلاث تبدو متشابهة .. إلا أن هناك خلافات كثيرة .. ما هو سبب التكرار الموجود فى الآيات .. وتقديم الصابئين مرة وتأخيرها .. ومع تقديمها رفعت وتغير الإعراب .. وفى الآيتين الأوليين (البقرة والمائدة) تأتى : « من آمن

بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . أما فى الآية التى فى سورة الحج فقد زاد فيها : « المجوس والذين أشركوا » . . واختلف فيها الخبر . . فقال الله سبحانه وتعالى : « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » .

عندما خلق الله آدم وأنزله ليعمر الأرض أنزل معه الهدى . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

مفروض أن آدم أبلغ المنهج لأولاده . . وهؤلاء أبلغوه لأولادهم وهكذا . . وتشغل الناس الحياة وتطرأ عليهم الغفلة . . ويصيبهم طمع الدنيا وجشعها ويتبعون شهواتهم . . فكان لابد من رحمة الله لخلقه أن يأتى الرسل ليذكروا وينذروا ويبشروا . .

الآية الكريمة تقول : « إن الذين آمنوا » . . أى إيمان الفطرة الذى نزل مع آدم إلى الأرض . . وبعد ذلك جاءت أديان كفر الناس بها فأبيدوا من على الأرض . . كقوم نوح ولوط وفرعون وغيرهم . . وجاءت أديان لها أتباع حتى الآن كاليهودية والنصرانية والصابئية ، والله سبحانه وتعالى يريد أن يجمع كل ماسبق فى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء لتصفية الوضع الايمانى فى الأرض . .

إذن الذين آمنوا أولا سواء مع آدم أو مع الرسل . . الذين جاءوا بعده لمعالجة الداءات التى وقعت . . ثم الذين تسموا باليهود والذين تسموا بالنصارى والذين تسموا بالصابئة . . فالله تبارك وتعالى يريد أن يبلغهم لقد انتهى كل هذا . . فمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . فكأن رسالته عليه الصلاة والسلام جاءت لتصفية كل الأديان السابقة . . وكل إنسان فى الكون مطالب بأن يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام . . فقد دعى الناس كلهم إلى الايمان برسالته . . ولو بقى إنسان من عهد آدم أو من عهد إدريس أو من

عهد نوح أو إبراهيم أو هود . . وأولئك الذين نسبوا إلى اليهودية وإلى النصرانية وإلى الصابئية . . كل هؤلاء مطالبون بالايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والتصديق بدين الاسلام . . فالاسلام يمسح العقائد السابقة فى الأرض . . ويجعلها مركزة فى دين واحد . . الذين آمنوا بهذا الدين : « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . والذين لم يؤمنوا لهم خوف وعليهم حزن . . وهذا إعلان بوحدة دين جديد . . ينتظم فيه كل من فى الأرض إلى أن تقوم الساعة . . أما أولئك الذين ظلوا على ما هم عليه . . ولم يؤمنوا بالدين الجديد . . لا يفصل الله بينهم إلا يوم القيامة . . ولذلك فإن الآية التى تضمنت الحساب والفصل يوم القيامة . . جاء فيها كل من لم يؤمن بدين محمد عليه الصلاة والسلام . . بما فيهم المجوس والذين أشركوا .

والحق تبارك وتعالى أراد أن يرفع الظن . . عمن تبع دينا سبق الاسلام وبقى عليه بعد الاسلام . . وهو يظن أن هذا الدين نافعه . . نقول له أن الحق سبحانه وتعالى قد حسم هذه القضية فى قوله تعالى :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة آل عمران)

وقوله جل جلاله :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾

(من الآية ١٩ سورة آل عمران)

إذن التصفية النهائية لموكب الإيمان والرسالات فى الوجود حسمت . . فالذى آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام . . لا يخاف ولا يحزن يوم القيامة . . والذى لم يؤمن يقول الله تبارك وتعالى له « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » . . إذن الذين آمنوا هم الذين ورثوا الإيمان من عهد آدم . . والذين هادوا هم أتباع موسى عليه السلام . . وجاء الإسم من قولهم : « إنا هدنا إليك » ـ أى عدنا إليك . . والنصارى جمع نصرانى وهم منسوبون إلى الناصرة البلدة التى ولد فيها عيسى عليه

السلام .. أو من قول الحواريين نحن أنصار الله فى قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

أما الصابئة فقد اختلف العلماء فيهم .. قال بعضهم هم أتباع نوح ولكنهم غيروا بعده وعبدوا من دون الله الوسائط فى الكون كالشمس والقمر والكواكب .. أو الصابئة هم الذين انتقلوا من الدين الذى كان يعاصرهم إلى الدين الجديد .. أو هم جماعة من العقلاء قالوا ما عليه قومنا لا يقنع العقل .. كيف نعبد هذه الأصنام ونحن نصنعها ونصلحها ؟ .. فامتنعوا عن عبادة أصنام العرب .. فقالوا عنهم إنهم صبئوا عن دين آبائهم .. أى تركوه وآمنوا بالدين الجديد .. وأيا كان المراد بالصابئين فهم كل من مال عن دينه إلى دين آخر .

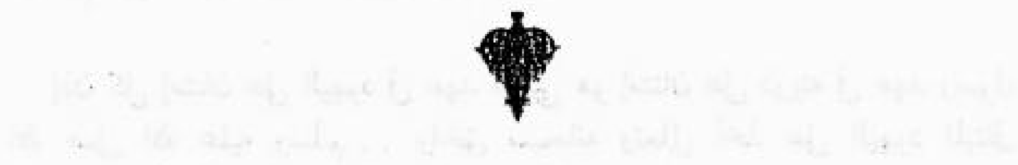
أننا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى .. جاء بالصابئين فى سورة البقرة متأخرة ومنصوبة .. وفى سورة المائدة متقدمة ومرفوعة .. نقول هذا الكلام يدخل فى قواعد النحو .. الآية تقول : « إن الذين آمنوا » .. نحن نعرف أن (إن) تنصب الإسم وترفع الخبر .. فالذين مبنى لأنه إسم موصول فى محل نصب إسم لأن : « والذين هادوا » معطوف على الذين آمنوا يكون منصوبا أيضا .. والنصارى معطوف أيضا على إسم إن .. والصابئين معطوف أيضا ومنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم ..

نأتى إلى قوله تعالى : « من آمن بالله واليوم الآخر » . هذه مستقيمة فى سورة البقرة إعرابا وترتيبا .. والصابئين تأخرت عن النصارى لأنهم فرقة قليلة .. لا تمثل جمهرة كثيرة كالنصارى .. ولكن فى آية المائدة تقدمت الصابئون وبالرفع فى قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا » .. الذين آمنوا إسم إن والذين هادوا معطوف .. و« الصابئون » كان القياس إعرابيا أن يقال والصابئين .. وبعدها النصارى معطوفة .. ولكن كلمة (الصابئون) توسطت بين اليهود وبين

النصارى .. وكسر إعرابها بشكل لا يقتضيه الظاهر .. وللعرب إذن مرهفة لغويا .. فمتى سمع الصابئين التى جاءت معطوفة على إسم إن تأتى بالرفع يلتفت لفتة قسرية ليعرف السبب ..

حين تولى أبا جعفر المنصور الخلافة .. وقف على المنبر ولحن لحنة أى أخطأ فى نطق كلمة .. وكان هناك إعرابى يجلس فآذت اذنيه .. وأخطأ المنصور للمرة الثانية فحرك الإعرابى أذنيه باستغراب .. وعندما أخطأ للمرة الثالثة قام الإعرابى وقال .. أشهد أنك وليت هذا الأمر بقضاء وقدر .. أى انك لا تستحق هذا .. هذا هو اللحن إذا سمعه العربى هز اذنيه .. فإذا جاء لفظ مرفوعا والمفروض أن يكون منصوبا .. فإن ذلك يجعله يتنبه أن الله له حكمة وعلة .. فما هى العلة ؟ ..

الذين آمنوا أمرهم مفهوم والذين هادوا أمرهم مفهوم والنصارى أمرهم مفهوم .. أما الصابئون فهؤلاء لم يكونوا تابعين لدين .. ولكنهم سلكوا طريقا مخالفا .. فجاءت هذه الآية لتلفتنا أن هذه التصفية تشمل الصابئين أيضا .. فقدمتها ورفعتها لتلفت إليها الآذان بقوة .. فالله سبحانه وتعالى يعطف الإيمان على العمل لذلك يقول دائما : « آمن وعمل صالحا » .. لأن الإيمان إن لم يقترن بعمل فلا فائدة منه .. والله يريد الإيمان أن يسيطر على حركة الحياة بالعمل الصالح .. فيأمر كل مؤمن بصالح العمل وهؤلاء لا خوف عليهم فى الدنيا ولا هم يحزنون فى الآخرة .



﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

يمتنُّ الله سبحانه وتعالى مرة أخرى على بنى إسرائيل بالنعم التى أنعم بها عليهم ويذكرهم بجحودهم بها . . ولكننا نلاحظ أن القرآن الكريم حينما يتكلم عن اليهود . . يتكلم عنهم بالخطاب المباشر . . فهل الذين عاصروا نزول القرآن وهم الذين أخذ الله تبارك وتعالى عليهم الميثاق . . هؤلاء مخاطبون بمراد آبائهم وأجدادهم الذين عاصروا موسى عليه السلام .

نقول انه كان المطلوب من كل جد أو أب أن يبلغ ذريته ما انتهت إليه قضية الإيمان . . فحين يمتن الله عليهم أنه أهلك أهل فرعون وأنقذهم . . يمتن عليهم لأنه أنقذ آباءهم من التذبيح . . ولولا أنه أنقذهم ما جاء هؤلاء اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فهم كانوا مطمورين فى ظهور آبائهم . . ولكى ينقذهم الله كان لابد أن تستمر حلقة الحياة متصلة . . فمتى انتهت حياة الأب قبل أن يتزوج وينجب انتهت فى اللحظة نفسها حياة ذريته . . الشىء نفسه ينطبق على قول الحق سبحانه وتعالى : « وإذا استسقى موسى لقومه » . . إمتنان على اليهود المعاصرين لنزول القرآن . . لأنه سبحانه وتعالى لو لم ينقذ آباءهم من الموت عطشا لماتوا بلا ذرية .

إذن كل إمتنان على اليهود فى عهد موسى هو إمتنان على ذريته فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . والحق سبحانه وتعالى أخذ على اليهود الميثاق القديم . . ولولا هذا الميثاق ما آمنوا ولا آمنت ذريتهم .

وقوله تعالى : « ورفعنا فوقكم الطور » . . أى ان الله تبارك وتعالى يذكرهم

بأنهم بعد أن نجوا وأغرق الله فرعون وقومه ذهب موسى لميقات ربه ليتلقى عنه التوراة .. فعبد بنو اسرائيل العجل . وعندما عاد موسى بالتوراة وبالألواح .. وجدوا فى تعاليمها مشقة عليهم .. وقالوا نحن لا نطيق هذا التكليف وفكروا ألا يلتزموا به وألا يقبلوه .

التكليف هو من مكلف هو الله سبحانه وتعالى .. وهم يقولون إن الله كلفهم ما لا يطيقون .. مع أن الله جل جلاله لا يكلف نفسا إلا وسعها .. هذا هو المبدأ الإيمانى الذى وضعه الحق جل جلاله .. يظن بعض الناس أن معنى الآية الكريمة :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

يظنون أننا نضع أنفسنا حكما على تكليف الله .. فإن كنا نعتقد أننا نقدر على هذا التكليف نقل هو من الله وإن كنا نعتقد أننا لا نقدر عليه بحكمنا نحن .. نقل الله لم يكلفنا بهذا لأنه فوق طاقتنا .. ولكن الحكم الصحيح هل كلفك الله بهذا الأمر أو لم يكلفك ؟ إن كان الله قد كلفك فهو عليم بأن ذلك فى وسعك ؛ لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها .. ونحن نسمع الآن صيحات تقول أن العصر لم يعد يحتمل .. وان ظروف الدنيا وسرعة الحركة فيها وسرعة الأحداث هى تبرير أنه ليس فى وسعنا أن نؤدى بعض التكاليف .. ربما كان هذا التكليف فى الوسع فى الماضى عندما كانت الحياة بسيطة وحركتها بطيئة ومشكلاتها محدودة .

نقول لمن يردّد هذا الكلام : إن الذى كلفك قديما هو الله سبحانه وتعالى.إنه يعلم أن فى وسعك أن تؤدى التكليف وقت نزوله .. وبعد آلاف السنين من نزوله وحتى قيام الساعة .. والدليل على ذلك أن هناك من يقوم بالتكليف ويتطوع بأكثر منه ليدخل فى باب الإحسان ، فهناك من يصلى الفروض وهى التكليف .. وهناك من يزيد عليها السنن .. وهناك من يقوم الليل .. فيظل يتقرب الى الله تبارك وتعالى بالتطوع من جنس ما فرض .. وهناك من يصوم رمضان ومن يتطوع ويصوم أوائل الشهور العربية .. أو كل اثنين وخميس على

مدار العام أو فى شهرى رجب وشعبان .. وهناك من يحج مرة ومن يحج مرات .. وهناك من يلتزم بحدود الزكاة ومن يتصدق بأكثر منها .

إذن كل التكاليف التى كلفنا الله بها فى وسعنا وأقل من وسعنا .. ولا يقال ان العصر قد اختلف ، فنحن الذين نعيش هذا العصر .. بكل ما فيه من متغيرات نقوم بالتكاليف ونزيد عليها دون أى مشقة . والله سبحانه وتعالى رفع فوق بنى إسرائيل الطور رحمة بهم .. تماما كما يمسك الطبيب المشرط ليزيل صديداً تكوّن داخل الجسد .. لأن الجسد لا يصح بغير هذا .

لذلك عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يصيب بفضله ورحمته بنى إسرائيل رغم أنوفهم .. رفع فوقهم جبل الطور الموجود فى سيناء .. وقال لهم تقبلوا التكليف أو أطبق عليكم الجبل .. تماما كما أهنك الله تبارك وتعالى الذين كفروا ورفضوا الإيمان وقاوموا الرسل الذين من قبلهم .. قد يقول البعض إن الله سبحانه وتعالى أرغم اليهود على تكليف وهو القائل :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَىِّۚ ﴾

(من الآية ٢٥٦ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

نقول إن الله جل جلاله لم يرغم أحدا على التكليف .. ولكنه رحمة منه خيرهم بين التكليف وبين عذاب يصيبهم فيهلكهم .. وهذا العذاب هو أن يُطْبِقَ عليهم جبل الطور .. إذن المسألة ليس فيها إجبار ولكن فيها تخيير .. وقد خيرَ الذين من قبلهم بين الإيمان والهلاك فلم يصدقوا حتى أصابهم الهلاك .. ولكن حينما رأى بنو إسرائيل الجبل فوقهم خشعوا ساجدين على الأرض .. وسجودهم دليل

على أنهم قبلوا المنهج . . ولكنهم كانوا وهم ساجدون ينظرون إلى الجبل فوقهم خشية أن يطبق عليهم . . ولذلك تجد سجود اليهود حتى اليوم على جهة من الوجه . . بينما الجهة الأخرى تنظر إلى أعلى وكان ذلك خوفا من أن ينقض الجبل عليهم . . ولو سألت يهوديا لماذا تسجد بهذه الطريقة يقول لك أحمل التوراة ويهتز منتفضا . . نقول انهم اهتزوا ساعة أن رفع الله جبل الطور فوقهم . . فكانوا فى كل صلاة يأخذون الوضع نفسه ، والذين شهدوهم من أولادهم وذريتهم . . اعتقدوا انها شرط من شروط السجود عندهم . . ولذلك أصبح سجودهم على جانب من الوجه . . ونظرهم إلى شيء أعلاهم يخافون منه . . أى أن الصورة التى حدثت لهم ساعة رفع جبل الطور لازالوا باقين عليها حتى الآن .

فى هذه الآية الكريمة يقول الحق تبارك وتعالى : « وإذ رفعنا فوقكم الطور . . » وفى آية أخرى يقول المولى جل جلاله فى نفس ما حدث :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

« نتقنا » كأن الجبل وتد فى الأرض ونريد أن نخلعه . . فنحركه يمينا ويسارا حتى يمكن أن يخرج من الأرض . . هذه الحركة والزحزحة والجذب هى النتق . . والجبل كالوتد تماما يحتاج إلى هز وزعزعة وجذب حتى يخرج من مكانه . . وهذه الصورة عندما حدثت خشعوا وسجدوا وتقبلوا المنهج .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « خذوا ما آتيناكم بقوة » . . الأخذ عادة مقابل للعطاء . . أنت تأخذ من معطٍ . . والتكليف أخذ من الله حتى تعطى به حركة صلاح فى الكون . . إذن كل أخذ لابد أن يأتى منه عطاء ؛ فأنت تأخذ من الجيل الذى سبقك وتعطى للجيل الذى يليك . . ولكنك لا تعطيه كما هو ، ولكن لابد أن تضيف عليه. وهذه الإضافة هى التى تصنع الحضارات .

وقوله تعالى : « بقوة » . . أى لا تأخذوا التكليف بتخاذل . . والإنسان عادة

يأخذ بقوة ما هو نافع له . . ولذلك فطبيعة مناهج الله أن تؤخذ بقوة وبيقين . . لتعطى خيرا كثيرا بقوة وبيقين . . وإذا أخذت منهج الله بقوة فقد ائتمنت عليه وان صدرك قد انشرح وتريد أن تأخذ أكثر . . لذلك تجد فى القرآن الكريم يسألونك عن كذا . . دليل على أنهم عشقوا التكليف وعلموا أنه نافع فهم يريدون زيادة النفع .

ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : « خذوا ما آتيناكم بقوة » . . فقد عشقوا التكليف ولم يعد شاقا على أنفسهم .

وقوله تعالى : « واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » . . إذكروا ما فيه أى ما فى المنهج وأنه يعالج كل قضايا الحياة واعرفوا حكم هذه القضايا . . « لعلكم تتقون » أى تطيعون الله وتتقون عقابه وعذابه يوم القيامة .

